شرح كتاب

الفتن وأشراط الساعة

من صحيح مسلم

◈◈◈

الدرس الثالث

باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت

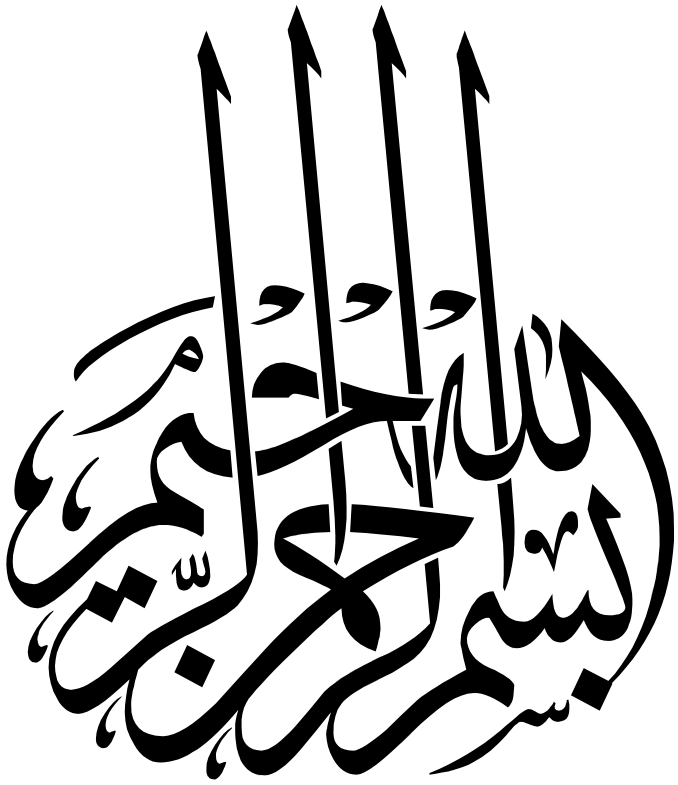
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين. أما بعد:

يقول الإمام النووي -رحمة الله عليه-:

[بابٌ: الْخَسْفِ بِالْجَيْشِ الَّذِي يَؤُمُّ الْبَيْتَ.

عَنْ عُبَيْدِ اللهِ ابْنِ الْقِبْطِيَّةِ، قَالَ: دَخَلَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ صَفْوَانَ وَأَنَا مَعَهُمَا عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَسَأَلاَهَا عَنِ الْجَيْشِ الَّذِي يُخْسَفُ بِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ! اللهِ فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهًا؟ قَالَ: «يُخْسَفُ بِهِ مَعَهُمْ، وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى نِيَّتِهِ» . وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ هِيَ بَيْدَاءُ الْمَدِينَةِ.

قَالَ: فَلَقِيتُ أَبَا جَعْفَرٍ فَقُلْتُ: إِنَّهَا إِنَّمَا قَالَتْ بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: كَلاَّ، وَاللهِ إِنَّهَا لَبَيْدَاءُ الْمَدِينَةِ.

وَعَنْ حَفْصَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُولُ : «لَيَؤُمَّنَّ هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ يَغْزُونَهُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوْسَطِهِمْ، وَيُنَادِي أَوَّلُهُمْ آخِرَهُمْ، ثُمَّ يُخْسَفُ بِهِمْ فَلاَ يَبْقَى إِلاَّ الشَّرِيدُ الَّذِي يُخْبِرُ عَنْهُمْ». فَقَالَ رَجُلٌ: أَشْهَدُ عَلَيْكَ أَنَّكَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَى حَفْصَةَ وَأَشْهَدُ عَلَى حَفْصَةَ أَنَّهَا لَمْ تَكْذِبْ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ-.

وَعَنْهَا -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَنّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قَالَ: «سَيَعُوذُ بِهَذَا الْبَيْتِ -يَعْنِي الْكَعْبَةَ- قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلاَ عَدَدٌ وَلاَ عُدَّةٌ، يُبْعَثُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ

خُسِفَ بِهِمْ». قَالَ يُوسُفُ: وَأَهْلُ الشَّأْمِ يَوْمَئِذٍ يَسِيرُونَ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ صَفْوَانَ: أَمَا وَاللهِ مَا هُوَ بِهَذَا الْجَيْشِ.

وَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ: عَبِثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي مَنَامِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! صَنَعْتَ شَيْئًا فِي مَنَامِكَ لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ. فَقَالَ: « الْعَجَبُ إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ بِالْبَيْتِ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ لَجَأَ بِالْبَيْتِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خُسِفَ بِهِمْ». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ. قَالَ: «نَعَمْ، فِيهِمُ: الْمُسْتَبْصِرُ، وَالْمَجْبُورُ، وَابْنُ السَّبِيلِ، يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى يَبْعَثُهُمُ اللهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»].

نعم، هذا الحديث -أيها الإخوة- يخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه عن أمرٍ يقع في المستقبل؛ وهو: الخسف بجيشٍ من أمّة محمد -صلى الله عليه وسلم- يؤمّ الكعبة فيُخسَف بهم كما ورد في الحديث.

والحديث مستفيضٌ عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من وجوهٍ كثيرةٍ، ومخرَّجٌ في الصحيحين.

وقوله: ((وكان ذلك في أيام الزبير))؛ استشكل هذا بعض أهل العلم، فقالوا: هذا ليس بصحيح، لماذا؟ قالوا: لأنّ أم سلمة -رضي الله عنها- توفيّت في خلافة معاوية قبل موته بسنتين سنة تسعٍ وخمسين؛ وعلى هذا فهي لم تدرك أيام الزبير، فكيف يقال إنّ ذلك كان في أيام الزبير؟!

لكن قال بعض أهل العلم: إنها -رحمها الله ورضي عنها- توفيت في أيام يزيد بن معاوية، وعلى هذا يستقيم، لأنّ ابن الزبير نازع يزيدًا أوّل ما بلغتْه بيعته عند وفاة معاوية؛ ذكر ذلك الطبري وغيره من أهل العلم.

وذكر ابن عبد البر في "الاستيعاب" أنّ أم سلمة -رضي الله عنها- توفيت زمن يزيد، وعلى هذا لا يكون في المسألة إشكال.

على أنّ هذا الحديث روته عددٌ من أمهات المؤمنين؛ روته أم سلمة، وروته حفصة، وروته عائشة، رضي الله عنهن.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: «يعوذ»، ما معنى يعوذ؟ معناه: يلتجئ إليه ويلوذ به طالِبًا العصمة، نحن نقول مثلًا: أعوذ بكلمات الله؛ أي ألتجئُ وأطلبُ العصمة، فمعنى قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أعوذ» أي يلتجئ إليه ويعتصم به.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: «خُسِف بهم» أي ذُهِب بهم في الأرض، فالله -عز وجل- يعاقب بعض الظالمين بأن يَخسف بهم الأرض.

وهذا وقع في الأزمان الماضية قبل بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ كما خُسِفَ بقارون، وسيقع بعد بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- في أقوامٍ من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ ومنهم قومٌ يجتمعون على الخمر، ويُضرَب على رؤوسهم بالمعازف، وتُغنّيهم القِيان؛ فيُخسف بهم -والعياذ بالله-. ومنهم هذا الجيش الذي يقصد الكعبة فيُخسَف بهم.

والبيداء: هي الصحراء، الصحراء تسمى بالبيداء، لماذا تسمى بالبيداء؟ قالوا: كأنها تُبيد مَن دخلها، فهي مَظِنَّة الهلاك، الصحراء الأصل فيها أنه لا ماء فيها ولا شجر، ومَن دخلها كان عُرْضَة لأن يهلك؛ فسميّت بالبيداء؛ لأنها مظنة أن تُبيد من دخل فيها.

والبيداء المذكورة في الحديث إمّا أنها صحراء لم تُعيَّن؛ لكنها جهة مكة، وإمّا أنها بيداء المدينة التي أهلَّ منها النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ وبيداء المدينة هي المكان المشرِف الممتد بعد الميقات، فأنت إذا صعدتَ من الميقات إلى طريق مكة القديم -وليس الطريق الجديد- فإنك أوّل ما تصعد من الميقات ترى مكانًا مشرفًا مرتفعًا، عليه الآن مستشفى -أحسب أنه يسمى بمستشفى الميقات- هذا المكان هو البيداء.

قال النووي -رحمه الله-: "قال العلماء: البيداء كل أرض ملساء لا شيء بها" فهي بيداء.

إذن البيداء: هي الأرض الصحراء التي ليس فيها بناء ولا شجر.

قوله -صلى الله عليه وسلم-: «ليؤمّن هذا البيت جيش»؛ أي يقصدونه، أي يقصد هذا البيت جيش.

وقوله: «إلا الشَّريد»؛ الشريد: معناه البقيّة، يعني يبقى منهم بقيّةً تُخبِر عن حالهم. والشريد كما قال أهل اللغة: هو البقيّة من الشيء، يقال: في الإناء شَريدٌ من الماء؛ أي بقية من الماء.

والمقصود أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- يُخبر أنه يبقى منهم شريد، لا لسلامته -هو-؛ وإنما لحكمة، ما هي الحكمة؟ أنه يُخبر عنهم مَن وراءهم.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: «ليست لهم مَنَعة»؛ أي ليس لهم مَن يَجمعهم ويَمنعهم.

وقول أمّنا عائشة -رضي الله عنها-: ((عَبِثَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في منامه)) ما المراد بعبث؟ معناه: اضطرب جسمه وحَرّك أطرافه، قال بعض أهل العلم: حرّك يده كمن يأخذ شيئًا في منامه، وليس هذا من عادة النبي -صلى الله عليه وسلم- في منامه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- في منامه يكون ساكنًا لا يَتحرك ولا يَضطرب -صلى الله عليه وسلم- لكنه في هذه المرة اضطرب وتحركت أعضاؤه ومدّ يده كأنه يريد أن يأخذ شيئًا وهو نائم، ولذلك سألتْه أمّنا عائشة -رضي الله عنها- عن هذا، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبرها.

ثم ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنّ فيهم: المستبصر، والمجبور، وابن السبيل.

فمَن هو المستبصر؟ المستبصِر: هو المستَبين الأمر، القاصد له، هو ذاهِب يريد البيت، عارِفٌ بهذا، بيِّنٌ له الأمر.

وأمّا المجبور: فهو المكرَه، يؤخَذ مكرَهًا، هو لا يريد، لكنه يُكرَه على أن يذهب مع هذا الجيش.

وأمّا ابن السبيل: فهو سالك الطريق معهم يريد مكة، هو لا يريد ما يريدون ولكنه يسير معهم يريد مكة.

ومع ذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إنهم يُهلَكون مَهلَكًا واحدًا»، أو «يَهلِكون مهلِكًا واحدًا» أي يقع الهلاك في الدنيا على جميعهم، فلا ينجو المكرَه، ولا ينجو ابن السبيل؛ كلهم يُهلَكون، ثم يوم القيامة يَصدُرون مصادِر شتَّى بحسب نياتهم. فالأمر بين يدي الله على النيات، فيُجازَوْن بحسب القصد وبحسب الغرض من المسير.

فأمّنا -رضي الله عنها- استشكلتْ وقوع العذاب على من لم يُشارِك، فإنّ فيهم من ليس منهم! فأخبرها النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم يُهلَكون جميعًا؛ ولكنهم يُبعثون على نياتهم، فالطائع يُجازى بنيته، والعاصي يُجازى بنيته.

المراد من هذا الحديث -يا إخوة-:

♦ بيان أنّ من الفقه التباعد عن أهل الظلم، فلا يكون الإنسان مع الظَلَمة وإن كان عدلًا، يبتعد عن أهل الظلم ويَحذر مجالسهم ويَحذر مجالستهم؛ لأنهم عُرْضة لنزول العقاب، وإذا نزل العقاب -والعياذ بالله- أصابه معهم.

ومن هنا -يا إخوة- كان السَّلف يُحذِّرون من مجالسة أهل البدع؛ لأنّ مجالسة أهل البدع شر، إمّا أن يوقِعوا في قلب المسلم الشُّبهة، فلعله أن يَغترَّ بهم، يذهب إليهم في زاويتهم وهو على سنَّة وخير، فقد يسمع شيخهم يقول شيئًا فيقع في قلبه، فمجالستهم شرٌّ من هذه الجهة.

ومجالستهم شرٌّ من جهة أخرى؛ وهي: أنهم عُرْضة لأن ينزل بهم العقاب، وإذا نزل بهم العقاب كان الإنسان معرّضًا لأن يكون معهم.

♦ وفيه: أنّ من الفقه العظيم أن يكون المسلم مع أهل السنة، أن يكون منهم ومعهم، يبحث عنهم، يبحث عن مساجدهم، فيكون معهم في مساجدهم، يحرص على أن يكون منهم في معتقده،

في أعماله، في أقواله؛ لأنهم موعودون بالسلامة؛ «لا تزال طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين حتى يأتي أمر الله».

♦ وفيه: من الفقه أنّ المسلم ينبغي أن يَتَّخذ له مُجالسين صُلحاء من أهل الاصلاح من أهل التُّقى، فهم الأمَنَة، وليس الأمر كما يفعل بعض المسلمين؛ يبحثون عن أهل المعاصي وعن أهل التساهل؛ يقول: نوسّع عن صدورنا، نفرح معهم، كما يقولون بالعامية: المطاوعة معقَّدون أجلس معهم يُذكّروني بالجنة والنار وبذكر الله، أنا أريد أن أنشرح! فيُجالس -والعياذ بالله- أهل الغيبة الذين لا يأنسون في المجلس إلا بأكل أجساد المسلمين، ويجالس أهل الكذب، ويجالس أهل البهتان.. إلى غير ذلك، هذا -أيها الإخوة- من الخذلان.

المسلم ينبغي عليه أن يكون حريصًا على مجالسة أهل الصلاح، على مجالسة أهل الطاعة، ففي مجالستهم النجاة والفلاح له.

♦ وفيه: أنّ المسلم ينبغي أن يتباعد عن الفتن، لأنه إن اقترب من الفتنة إمّا أن يكون من أهلها، وإمّا أن يُجبَر عليها. إذا اقترب من الفتن إمّا أن يكون من أهلها -والعياذ بالله- وإمّا أن يُجبَر عليها ويَتسلّط عليه أهلُها، فإذا نزل عقاب كان معَرَّضًا لأن يكون معهم، فالمسلم يَتباعد عن الفتن.